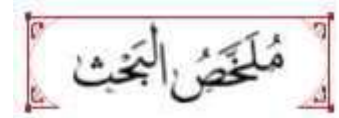


نسقية خطاب المناجاة في الشعر الشعبي الجزائري - ابن مسايب نموذجًا
On the Systematicity of Soliloquy in the Algerian Folk Poetry : Ibn M'sayeb as a Case in Point

أ.د. عبد الرحمن بغداد

المركز الجامعي مغنية (الجزائر) a.beghdad@cu-maghnia.dz

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2025 / 03 / 15	2025 / 02 / 08	2025 / 01 / 29



يُعدّ الدِّينُ نَسَقًا ثقافيًّا مُهمِّمنا ومُوجِّهًا لحركية الإنسان، والشاعر هو أحد أنساق المعرفة الدينية والثقافية في آنٍ واحدٍ، استمد شرعيّته وشرعيّة شعره، بانتماؤه إلى الموروث الثقافي، المتبطن بمرجعيات دينية، انعكست تأثيراتها اللفظية والبيانية على نفسية المتلقي. ووفق هذا الكلام نلاحظ أن الشاعر الشعبي ابن مسايب هو أيضًا اتخذ من المنظومة الدينية المقدّسة منبرًا للدعوة إلى المبادئ والأفكار التي آمن بها وأصبح يُدافع عنها فِكْرًا ومُعتقدًا، فانعكست تلك الإيماءات الدينية في نتاجاته الشعريّة، كونها تُحقّق له ذلك الاتّصال الروحي بينه وبين خالقه، ولعلّ ذلك كان من الأسباب التي دفعته؛ لأنّ يَتَمَسَّكَ بالمثل والقيم الأخلاقية السّامية التي دعا إليها وأمن بمحتواها العقدي في أثناء خطابه الشّعري.

إنّ القراءة الفاحصة لشعر ابن مسايب يتبين أنه قد نسج شعره على هامش مصادر ثقافية متنوّعة، منها القرآن الكريم، والتراث، والشعر العربي بقصد تمثّل ما مرّ به في حياته من مواقف نفسيّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، فضلًا عن التعبير عن رغباته وتطلّعاته، فكان النّسق الديني واضحًا وجليًّا في خطابه الشّعري، وهذا ما تبيّن لنا من خلال هيمنة أنساق المناجاة، والشعور بالقلق، والخلق الديني في قصائد الشاعر الشعبي التلمساني.

الكلمات المفتاحية: الشعر الشعبي - ابن مسايب - الدِّين - الأنساق - المناجاة - القيم الأخلاقية.

Abstract

Religion is a dominant cultural and human mobility-oriented pattern. Poetry is a form of religious and cultural knowledge at the same time, deriving its legitimacy and the legitimacy of its poetry by belonging to the cultural heritage, which is veiled by religious references, and whose verbal and graphic effects on the recipient's psyche have been reflected. According to this statement, the popular poet Ibn Messaib also took a

platform from the sacred religious system to advocate the principles and ideas he believed in and became defended by thought and belief. To uphold the lofty moral ideals and values he advocated and secure their nodal content during his poetic speech.

A close reading of Ibn Messaib poetry shows that he has weaved his hair on the margins of diverse cultural sources The Holy Quran, heritage, and Arab poetry to reflect the psychological attitudes he has experienced in his life, Social, political, as well as expressing his wishes and aspirations, the religious pattern was evident in his poetry speech. This was demonstrated to us by the dominance of the patterns of soliloquy, anxiety and religious morality in the poems of the Tlemcen folk poet.

Keywords: Popular poetry - Ibn Messaib - Religion - Consistency - Soliloquy - Moral values.

1. المقدمة

امتازت مدن ونواح جزائرية كثيرة بنبوغ شعراء شعبيين خلدوا قصائد غاية في الإبداع، وبرعوا في كل فنون الشعر من غزل وملاحم وقصص وهجاء وحكم ووعظ ومدائح نبوية ووصف الطبيعة، مسجلين فيها عواطفهم الإنسانية، ووصف كل مظاهر حياتهم الاجتماعية في الحواضر والبوادي. وكان الدين الإسلامي وما يزال من المصادر الهامة التي تمد الشعراء بموضوعات شعرهم، وترقق مشاعرهم وأحاسيسهم وتوحي لهم بكثير من إبداعهم. ومن هنا يلتقي الدين والشعر الشعبي في هدفهما، حيث كل واحد يسعى إلى تقويم النفس الإنسانية والمجتمع الإنساني، وإشباعهما إلى الخير والجمال، ونشر الفضائل والأخلاق الحسنة. وقد سعى الشعراء الشعبيون بحكم ثقافتهم الدينية، إلى شحن نتاجهم الفني بأنساق ثقافية مضمرة تُترجم واقعهم وعلاقتهم بالحياة الاجتماعية، ومن أبرز هذه الأنساق النسق الديني. ووفق هذه النسقية، لم يكن توظيف النسق الديني في شعر ابن مسايب محض صدفة، وإنما كان الشاعر على معرفة ودراية تامة بقيمة هذا التراث الديني، إذ اتخذ منه وسيلة يُعبر من خلالها عما يعتره من مشاعر وعواطف وانفعالات، فضلاً عما يجول في خاطره من مواقف وآراء، يمرر من خلالها أنساقه الثقافية وغاياته المضمرة.

* إشكالية البحث وأهميته

تنفتح النصوص الشعرية الشعبية على العديد من الإشارات التي يسعى الشاعر إلى تمريرها للمتلقى. ويسعى هذا البحث إلى تقديم أنساق متمركزة في شعر ابن مسايب ورصدها وبيان دلالاتها، وقد تنوعت تلك الأنساق بتنوع الصور الشعرية التي وردت فيها، فكان النسق الديني في دلالات المناجاة، والشعور بالقلق، والخلق الديني هو الذي عادت إليه الأهمية في قصائد الشاعر الشعبي التلمساني.

* أسباب اختيار الموضوع

مما دفعني للبحث في هذا الموضوع ما يلي:

- عدم وجود بحث قائم بذاته حول هذا الموضوع بذاته.
- أن المعتقد والدين من أهم دوافع الإبداع لدى الشاعر ابن مسايب الذي جاءت قصائده خير مترجمة له.

- أن ابن مسايب استمدَّ شرعيته وشرعية شعره بانتمائه إلى الموروث الثقافي المتصل بالمرجعية الإسلامية.

* أهداف البحث

أردت من اختيار هذا البحث تحقيق أهداف عدة، منها:

- أن الشاعر ابن مسايب المؤمن بقدسية الدين الإسلامي تُحتم عليه الترويج للأفكار والمبادئ التي آمن بها.
- دراسة الأدب الشعبي للتأكيد على أن الشعرية بشكل خاص قادرة على استيعاب المناهج النقدية الحديثة.

* الدراسات السابقة

لا توجد دراسة تناولت شعر ابن مسايب من منظور ثقافي، وإن تعددت الدراسات التي تناولته من وجهات أخرى، نذكر منها ما يأتي:

1. البنية الأسلوبية في الخطاب الشعري الشعبي- ديوان ابن مسايب نموذجًا.
2. المقامات الصوفية في الشعر الشعبي التلمساني - ابن مسايب وابن تريكي والمنداسي أنموذجًا.
3. ظاهرة التكرار وحركية المعنى في الخطاب الشعري - نماذج من شعراء ابن مسايب.

2. الشاعر ابن مسايب وعصره

هو الشاعر أبو عبد الله الحاج محمد بن مسايب اليعقوبي، أحد أبرز شعراء الشعر الشعبي في الجزائر خلال القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي. يسجل التاريخ عن حياته القليل من الأخبار، سواء التي تحدتت عن مولده أو ما تعلق بظروفه الاجتماعية، ولعل شأنه في ذلك شأن أقرانه من شعراء الأدب الشعبي في الجزائر أمثال ابن سهلة وابن تريكي وغيرهما. وإن معظم ما وصلنا عنه كان متناقلا شفاهيا، حيث تذكر المصادر التاريخية أن الشاعر ولد أثناء العهد العثماني أوائل القرن الثاني عشر للهجرة، وهذا بدليل نظمه لقصيدة «عمدالي ما وجدت صبيرا» التي أرخ لها عام تسعة عشر بعد المئة والألف (1119هـ) قال فيها:

هَذِهِ مِني يَغِيرُ فَخْرَةٌ * سَلَامِي لِلْأَشْيَاخِ مَا نَا حَتْ الْأَطْيَارِ
فِي التَّاسِعِ عَامِ بَعْدَ عَشْرَةٍ * مِئَةٌ وَأَلْفَ حَكِيَّتٍ لَكُمْ شَيْئًا صَارَ
وَإِسْبَابِي فِي الْمُحَايِنِ عَذْرًا * خَطَفْتُ عَقْلِي وَكُوْنْتُ كِيَّةً بِلَا نَارِ
زُورَةَ يَا عَاشِقِينَ زُورَةَ * إِلَى مَكَّةَ بَلُّغُوا سَلَامِي يَا زِيَارًا

ينحدر أصله من أسرة أندلسية الجدور لجأت إلى مدينة فاس ثم في مدينة وجدة المغربيةتين قبل أن تحط الرحال في تلمسان مع بداية القرن 17م. نشأ الفتى ابن مسايب وتعلم في المدارس القرآنية بحي باب الزير،

أحد أعرق أحياء ودروب تلمسان العتيقة. وكانت المدينة آنذاك عاصمة العلم والأدب، فعزم ابن مسايب على تلقي تكوينًا دينيًا ولغويًا وفقهياً على يد علمائها وفضلائها².

باشرا ابن مسايب بعد ذلك مع والده حياة مهنية مستقرة، تعلم خلالها حرفة النسيج والحايك والمرملة. ثم مارس مهنته في ورشة بتلمسان لصهر زوجته عائشة التي أحبها ونظم فيها أشعارًا كثيرة. لكن هذه الحياة الهادئة لم تدم طويلًا، وخاصة بعد ما تعرّضت إليه تلمسان من اضطرابات سياسية واجتماعية خلال القرن 17م، حيث جعلت الشاعر ينخرط في ديناميكيتها السياسية، ويُجبر بمواقفه وانتقاداته من السلطنة العثمانية المحليّة، قاداته إلى السّجن ثم النّفي إلى المغرب. وخلال هذه المرحلة المتوترة من حياته، نظم ابن مسايب أغنيته الشهيرة "يا أهل الله أغيثوا الملهوف" طالبًا منم الغوث والمساعدة³.

لقي الشاعر ابن مسايب في منفاه بمدينة مكناس المغربية في ظل حكم السلطان مولاي إسماعيل (1672-1727م) كلّ التقدير والاحترام وحسن الضيافة، وذاع صيته في الحواضر المغربية خصوصًا في وجدة وفاس، لكن حُرقة البُعد والفُرقة عن الأهل والأصحاب لم تنس الشاعر التّغني بجمال مدينته وبالمراة التلمسانية، فكانت قصيدته الشهيرة "طال الوخش عليّ، أنا يا براني غريب، لا من يسأل عني" التي تألّق بها على جلّ أشعاره خلال حياته الطويلة⁴.

وقد عاش ابن مسايب متنقلا بين تلك المدن، ينظم الشعر ويؤلّف في الغناء الشعبي (شعر الحوزي) قصائده: "من نهوى رُوحِي وُزاحتي، عُمرِي ما ننساها"، و"يا قامة غصن اليأس"، و"كحل العين مدبّل الشفّر، ما لخبيبي ما له"، و"من صابني مع الحبيب ليلة" التي تبرز بحق صورًا حيّةً وكاملةً لمعاناة الشاعر ومقاساته لضروب الشوق والحنين، والحسرة والألم، تجعل القارئ يعيش معها في عمق الخيال وتصوّراته بدون أن يحتاج إلى استلهاهم العقل أو الفكر.

والشاعر ابن مسايب بعد إصداره لصور اليأس والتظلم، وفي وصفه لألمه وحسرتة، ينطلق مع بداية العقد الخامس من حياته إلى مرحلة "العودة إلى الله"، يتقرّب إليه ويدعوه بجاه الأنبياء والصّحابة والأولياء، ويؤوب إليه مستغفرًا تائبًا نادمًا، مُسخّرًا شعره كله في خدمة الدّين والموعظة الحسنة، فكانت إحدى ثمار هذا التحوّل في حياة ابن مسايب ميلاد أشعار المديح النبوي والتوسلات منها: "الحزم يا رسول الله، كيفاش جيت عندك قاصد، الحزم يا حبيب الله"، و"جيت نشكي بأمرِي يا سلطانِي يا لُوحداني". ولعلّ زيارته للبقاع المقدّسة لأداء مناسك الحج كانت هي الأخرى نقطة تحوّل حاسمة في مسيرته، ختمها بالعودة إلى مسقط رأسه تلمسان⁵. ويُذكر أن محمد بن مسايب توفي في حي العباد السُّفلي بتلمسان في عام 1768م بينما رواية ثانية تذكر العام 1776م، ودُفن في مقبرة سيدي محمد السنوسي حدّوضريح الموحد الشيخ السنوسي العالم الصوفي⁶.

3. النسق الديني في شعر ابن مسايب

إن شعر ابن مسايب صورة حقيقية لاختلاجات نفسه، وما بداخلها من أحاسيس تكوّنت نتيجة نشأته في بيئته التلمسانية، وما تعرّض له في تلك البيئة من أحداث ومضايقات، "فالشاعر صيغة نسقية، تكشف عن ثقافة واعية، في توظيف اللغة الجمالية، وهو يمتلك القدرة الإبداعية، على تمرير أنساقه المضمرة، وتضمينها خطاباته وأفكاره"⁷. وتُظهر القراءة الفاحصة لشعر ابن مسايب حضورًا لافتًا للدين، باعتباره من المرجعيات الثقافية ذات الأهمية البالغة في المجتمع الجزائري عامة والشاعر الشعبي خاصة، إذ تأثر الشاعر فيها وعمل على حُسن توظيفها في خطابه الشعري، ذلك لما يحمله الدين من تأثير واضح وبارز في طبيعة النفس الإنسانية، فضلاً عن كونه نشاطاً روحياً يُمارسه الإنسان ويُراد به إدخال السكينة إلى نفسه من جهة، ويُحاول السيطرة على الظواهر الطبيعية المحيطة به من جهة أخرى حتى يعزّو كلَّ تقلُّبات الأحوال إلى مَنْ كان يُؤمن به⁸. ولم يكن الدين "في حياة العرب قديماً ولا حديثاً حالة هامشية في الحياة اليومية، يُمارسه الأفراد كما تُمارس الأنشطة الأخرى؛ بل يُشكّل الدين نشاطاً حيويًا وروحياً أساس يسعى الفرد لتمثّل قيمه، والمحافظة عليه ورفض كل ما يتعارض معه فكريًا وعملاً"⁹، إذ شكّل الدين عند الإنسان محورًا وجوديًا عامًا، فإيمانه هو ما يعيش من أجله وهو غالبًا ما يكون مُستعدًا للموت في سبيله¹⁰.

ونزعة التدين كآمنة في أعماق النفس البشرية، وربّما مُصوغ ذلك أنّ الإنسان يُولد مَفطورًا على التدين والاعتقاد فيما يفوق قدرته الإدراكية من قوى، وهذا ما جعله يلجأ إليها اعتقادًا منه أنّ تلك المُعتقدات التي يُدين إليها بالقدسية والطاعة هي من تتحكّم في مصيره¹¹. ووفق هذا الطرح، فقد شكّل الدين في شعر ابن مسايب مصدرًا مهمًا من مصادر الإلهام الشعري، حيث لم يخلُ ديوانه من معاني دينية مضمرة شكّلت للشاعر دافعًا قويًا لبغث السكينة والاطمئنان في نفسه، والتهدئة من رُوعه حيال ما كان يُحيط به من أهوال وخطوب. وقد أبرز خطاب ابن مسايب الشعري في قضاء النسق الديني خطاب المناجاة.

* نسقية خطاب المناجاة

احتلَّ أسلوب المناجاة حيزًا كبيرًا في قصائد ابن مسايب، بل وعُدَّ من العناصر البارزة فيه، إذ نجد الشاعر المؤمن بربه يُناجيه ويتوسل إليه ليستجيب دعاءه الذي يميزه "الوضوح والمباشرة التقريرية التي تتضمنها طبيعة حاجات المدعوها. فالداعي يعنيه أن يتقدّم بحاجاته الفردية وحاجات الآخرين بلغة واضحة لا غموض ولا تعميق فيها"¹². وقد لَبَّى ابن مسايب حاجات هذه النفس في مناجاته المتعدّدة، فمن خلال اطلعنا على أشعاره في هذا الباب تبين لنا موضوعاتها الغنيّة بمختلف المشاعر الإنسانية النبيلة، النابعة من عقيدته الإسلامية. ومن ذلك يقول:

طَلَبْتِكَ تَعْفُوا عَنِّي * يَا عَظِيمَ الْجَبْرُوتِ
 تُبُّ عَنِّي وَاهْدِينِي * لِلطَّرِيقِ قَبْلَ الْقُوتِ
 بُحْرَمَةَ أَحْمَدُ تَبْتِنِي * عَلَى الشَّهَادَةِ قَبْلَ المَوْتِ¹³

إنَّ في خطاب الاستجداء هذا، لم يَنسَ الشاعر لحظةً واحدةً أنه يقف مُناجياً ربًّا رحيماً يقبل التَّوبة عن عبده، ويعفو عن جميع الذُّنوب والآثام على الرَّغم من إحساسه الشَّدِيد بعِظم جُرمه، وانظر إلى كلمة "عني" التي ردها مرتين، ليبين مدى شعوره بالخضوع والتذلل لخالقه عز وجل الذي لا يعجزه شيء. ثم لوتمعنا في مُضمَر النَّسق الدِّيني في هذه الأبيات، لوجدناه ممثلاً في تلك الذَّات المناجية التي تجاوزت حدود التَّعبير عن خطيئتها، وأرادت التَّأكيد أكثر على إظهار جانب عظمة الخالق في الرَّحمة والصَّفْح عنه، فضلاً عن إظهار التوسُّل إلى الرَّسول الكريم كوسيلة لمناجاة ربه.

إنَّ التَّضَرُّع في شعر المناجاة الذي دأب عليه ابن مسايب مرَّده إلى "العقيدة الإسلامية التي ترى من خلالها شفافية النَّفس، أنه لا بد للإنسان أن يتوب إلى رُشده، وأن يتوب إلى بارئه، فيقف ببابه تائباً، ولا يهَمُّ أن يكون مَبْعَث هذا الوَّقوف هو اجْتِراح الذُّنب، فأكثر ما يكون الباعث هو الرَّجاء والحاجة"¹⁴ التي كشفت عنها نسقية أشعاره، وهذا ما جسده في قوله:

يَا اللَّهُ أَنَا عَبْدُكَ * وَالْعَفْوُ مَنكَ نَرْجَاهُ
 بِالنَّبِيِّ نَتَوَسَّلُ لِكَ * وَالْكِتَابِ وَيَا مَنْ تَفْرَاهُ
 وَالسَّمَوَاتِ وَعَرْشِكَ * وَالْقَلَمِ وَاللُّوْحِ مَعَاهُ¹⁵

وعلى نفس الوتيرة، يسير نَسق المناجاة في شعر ابن مسايب في عَرَضٍ مباشرٍ وبأسلوب الاعتماد على شرح الحال وإرسال النَّفس على سجيئتها ليكون مدعاةً للاستجابة، حيث يقول:

يَا اللَّهُ أَقْبَلْ عُذْرِي * كُنْتُ غَرِي مَّا نَعْرِفُشْ
 عُصِيْتُ فِي حَالَةٍ صُغْرِي * تُبْتُ دُرُوكُ مَّا نَرْجَعُشْ
 خُفْتُ مِّنْ لَيْلَةٍ قَبْرِي * لَيْلَةَ الظُّلْمَةِ وَالْوَحْشِ¹⁶

نجد خطاب التَّضَرُّع في هذه الأبيات، قد أخذ جانباً نسقياً مهماً من خلال مصطلحات "غري" و"مَّا نَعْرِفُشْ" و"حالة صُغْرِي"، فالشاعر وهو يعقد العزم على الاعتراف والإقرار بذنبه الذي اقترفه صبيّاً، إنما يُريد التَّرويج لفكرة نسقية تكشف لنا عن نفس مُؤمنةٍ ومُخفوفةٍ بالرَّهبة وقلبٍ يملؤه الخوف من عقاب الله وعذاب القبر وهول ظلمته، مُعبِّراً عن هذا الشُّعور الذي سيطر عليه بالفاظٍ مليئة بالإيمان واليقين في قوله: عصيت - تبت

– خفت التي عبرت عن لحظة من لحظات الغفلة وما يشيع فيها من روح المناجاة والاستغفار "وهي امتلاء النفس بالمشاعر الإسلامية الحية الدافقة، التي هي أدعى إلى إيقاظ نوازع الخير والطهر والجمال التي جاء بها الإسلام لإشاعتها في الكون، وبسطها في العالمين"¹⁷.

وفي مواضع من الديوان، لجأ ابن مسايب في خطاب مناجاته، إلى تمثّل نسق "الرضا" بقضاء الله وبالامتثال لأوامره ونواهيه الذي يشير به إلى التدبير المحكم للخالق العزيز الذي يسير الأمور بمنطقية ونظام وإحكام لا أثر فيه للعبث أو المصادفة، وهذا ما يؤكد في قوله:

هَكَذَا قَدَرُ قُضِيَ رَبِّنَا الْحَكِيمُ * كَيْفَ أَرَادَ فَعَلُ بِأَحْكَامِهِ وَقُدْرَتِهِ
مَالِكُ الْمَلِكِ الْحَيِّ الدَّائِمِ الْقَدِيمِ * مَنْ نَشَأَ الدُّنْيَا وَابْسَطَهَا بِنِعْمَتِهِ
مَا عَلِمَهَا مَرْتَاخَ غَنِيٍّ وَلَا عَدِيمٍ * وَكُلُّ مَنْ هُوَ فِيهَا مَعْلُومٌ تَعَبْتُهُ¹⁸

إنّ كل لفظة وردت في هذه الأبيات: ربنا الحكيم – أحكامه وقدرته – مالك الملك – الحي الدائم – إلا وكانت في خدمة نسقية إيمان العبد بقدرته ربّه، وتسبيحه والثناء عليه بما هو أهل له، والتقرّب إليه بصفات ذاته العلية، فعملت أنساق الخطاب على إظهار مشاعر الحب والشوق والخوف والرجاء ولعل من شعر بذلك يكون صادق القلب، نظيف الذهن، يتحدّث عن بدهة الأشياء وتيسيرها من لدن مُدبّرٍ حكيمٍ، بيده الملك وإليه المصير.

ونلاحظ في المقام ذاته، وقوف ابن مسايب أمام باب الرحيم أسيراً بين راجٍ وخائفٍ داعياً ربّه أن يمنّ عليه بالعفو، وهذه النسقية هي أقوى أنواع المناجاة الربانية. فقوة التقرّب من الربّ تعتمد على الرجاء والخوف، لأن الشاعر وهو يناجي ربه لا يناجي ذاتاً بعينها بل يناجي ذاتاً مقدّسة، لطلب العون والمساندة، والاستنجاد، وهذا الاستنجاد الرباني يتطلّب أساليب تجعل المستنجد أكثر قرباً بالمشاعر والعاطفة من الربّ بناء على استثارة سمع المنادي (أي الرب) "¹⁹، وهذا ما عمدته الشاعر ابن مسايب في قوله:

هَكَذَا أَرَادَ وَقَدَّرَ مَنْ نَشَأَ الْأَنَامُ * فِي الْأَزَلِ كَوَّنَ أَدَمَ مِنْ مَاءِ
الْقَدِيمِ الدَّائِمِ الْبَاقِيِ عَلَى * خَالِقِ الْأَشْيَاءِ الْقَوِيِّ الْمُتِينِ
خُفْتُ مِنْ لَيْلَةِ قَبْرِي * لَيْلَةَ الظُّلْمَةِ وَالْوَحْشِ
خَلَقَ أَدَمُ وَخَلَقَ الْمَوْتَ فِي * مَالِكِ الْمَلِكِ الْحَيِّ الدَّائِمِ الْحَنِينِ

إنّ التّمعّن الشّدِيد في نسق الدّين، نلحظه أيضاً في تلك اللغة المتأججة بالعاطفة الجريحة، وهي تستشعر عظمة الذنب وشكوى الشاعر من الشيب الذي نال منه، مُعلناً انتقاله إلى مرحلة أخرى من حياته، يتوجّه فيها

بالخطاب إلى نفسه الأمرة بالسوء بعدما اقترفته من الذنوب، طالبًا منها أن تكفَّ عن إيذاء النَّاسِ، والتَّوبَةَ إلى الله، ومن صُور ذلك ما جاء في قوله:

وَأَبْتَلَيْتُ وَأَنَا يَا شَايِبَ * * * وَفَعَلْتُ الشُّغْلُ اللَّيِّ
 اِغْتَبْتُ النَّاسَ وَاللِّي * * * اِقْدَفْتُ فِيهِ بَلْسَانِي
 واليوم راني لله تايب * * * نرجو العفو بركاني²¹

تكشف القراءة لهذه الأبيات، أنَّ خطاب المناجاة هذا، كشف لنا عن نسقية "الاعتراف بالذنب"، فثمة خوفٌ يُسيطر على ثنايا الشَّاعر، مرجعه عصيان الشَّاعر لربِّه أيام جهله، راجيًا من ربِّه أن يجبره ويأخذ بيده، ويحقق رجاء بعفوه عنه وغفرانه لسيئاته.

ويستمر نسق الدِّين في رؤية الشَّاعر ابن مسايب للدِّنيا، ويأخذ على عاتقه تحذير النَّاس منها ومن زخرفها الزَّائل، حيث بثَّ في شعره العديد من الأشعار التي تدعو إلى ترك الدِّنيا والابتعاد عن شهواتها؛ كونها حياة لا تتسم بالثبات، بل على اضطراب تام، وفي ذلك يقول:

جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ غُرُورٍ مَتَوَحُّشًا * * * فَانِيَهُ مَا يَبْقَى فِيهَا حَدَّ مِخْتَكِمِ
 مَنْ نَبَتَتْ لَهُ فِي الْقَلْبِ * * * مِشْتَعْلٌ بِهَا وَلَا بُدًّا مِنَ النَّدَمِ
 سَابِقٌ فِي عِلْمِهِ يَرْحَمُ كُلَّ مَنْ حُشَا * * * غَدَايُهُ فِي إِحْكَامِهِ رَبَّنَا احْكَمْ
 جَعَلَ الْجَنَّةَ دَارَ أُخْرَى * * * بِالذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ فِيهَا الْخُلْدُ دَامَ²²

وهكذا يسير شعر ابن مسايب على هذه الوتيرة، مرتكزًا على صدق عاطفته، ورقة شعوره في تحذير الإنسان من متاع الدِّنيا الزَّائف، وزخرفها الخادع، وداعيًا إياه إلى الإنابة إلى ربه العزيز الغفار، فينطرح بين يديه تائبًا مبهلًا إليه بخالص الدعوات، لأنه هو الواحد الأحد الذي يُجيره من عذابه، ويشمله بعفوه ورحمته.

وخلاصة القول، إن شعر المناجاة عند ابن مسايب شعر تعبدي بامتياز في جملة، يكشف لنا عن عمق صلة الشَّاعر بخالقه عزَّ وجلَّ، واستشعاره الطمأنينة والأنس إليه تبارك وتعالى، فضلاً عن مناجاته بكل ما اعتمل في نفسه من مشاعر الحبِّ والشَّوق والخوف والرجاء، في لحظات الضَّعف والقوَّة. كما بثَّ من خلال أشعاره شكواه إلى خالقه مما يعتريه من ضعف بشري صرفه عن عبادته، متذللاً خاضعاً لله عزَّ وجلَّ، وراجيًا عفوه ورحمته التي وسعت كل شيءٍ، وخاشياً عقابه وما اقترفته يده من سوء وأثام. وعلى هذه الوتيرة سار خطاب المناجاة عند الشَّاعر الشعبي ابن مسايب على وتيرة وإظهار مختلف عبارات الوجد والمحبة والقيم الدينية

المترسخة في عقلية الشاعر تقرّبًا للخالق عزّوجلّ باطنياً لا شكلياً مما أنتج عن ذلك نوعاً من الحوار الذاتى مع الذات المقدسة من دون مناجاة الآخر البشري.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة تقديم صورة لخطاب المناجاة في شعر ابن مسايب الشعبي، وكانت من أبرز النتائج التي كشفت عنها هذه الدراسة ما يلي:

1. مثل النسق الديني نسقاً قاراً في ديوان الشاعر الشعبي ابن مسايب، وموجّهًا لحركة الشاعر الشعبي الذي تجسّدت روافد إبداعه وانعكست في قصائده بشكلٍ جليّ.
2. يتجلى بوضوح أنّ الشاعر ظل في اتصالٍ دائمٍ بفضاء الدين، ولهذا كان أشد حرصاً على تضمين أشعاره بالنسقية الخلقية لكونها من الأسس الإنسانية التي جاء بها الإسلام.
3. شكّل حبّ الذات الشعيرة للذات المقدسة أحد أركان مرتكزات الخطاب المناجاتي، إذ تعامل الشاعر الشعبي مع خالقه، تعامل العاشق على طريقة الصوفية.
4. وظّف الشاعر كثيراً من مصطلحات المنظومة الدنيوية، في خطابه الشعري، كالحبّ والخوف والتضرّع والإنابة.
5. يُعد خطاب المناجاة غنيّاً وذا وفرةٍ في شعر ابن مسايب، حقّق له ذلك الاتّصال الروحي بينه وبين خالقه الذي دفعه إلى التمسك بالقيم والمثل الأخلاقية السامية التي روج لها وأمن بمحتواه العقائدي أثناء خطابه الشعري.

الهوامش

- 1 ابن مسايب، الديوان، جمع وتحقيق محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، دار ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، ب.ط، 2001، ص 26.
- 2 ينظر: فوزي سعد الله، صفحات مجهولة من تاريخ الغناء الأندلسي، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2001، ص 495.
- 3 ينظر: المرجع نفسه، ص 496.
- 4 ينظر: المرجع نفسه، ص 497.
- 5 ينظر: فوزي سعد الله، صفحات مجهولة من تاريخ الغناء الأندلسي، ص 498.
- 6 ابن مسايب، الديوان، ص37.
- 7 خالد حسين جبر، جينالوجيا الأنساق الثقافية في الشعر الجاهلي، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، العراق، 2015، ص 118.
- 8 يُنظر: أنستانس ماري الكرمل، أديان العرب وخرافاتهم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص 22.
- 9 ناظر كاظم، تمثيلات الآخر - صورة الآخر السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص 102.
- 10 يُنظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لبنان، ط2، 1993، ج 11، ص9.
- 11 ينظر: كمال طاهير، الخطاب المعرفي للشعر العربي قبل الإسلام، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، كلية الآداب واللغات، 2013، ص 70.
- 12 محمود البستاني، البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة، ط1، 1414هـ، ص 151 و152.
- 13 ابن مسايب، "الديوان"، ص127.
- 14 عبد الرحمن الحربي، النزعة الدينية في شعر محمد العيد الخطراوي - رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 2010، ص 14.
- 15 ابن مسايب، "الديوان"، ص127.
- 16 المصدر نفسه، ص 128.
- 17 صالح آدم، من قضايا الأدب الإسلامي، دار المنارة، جدة، ط1، 1985، ص 79.
- 18 المصدر السابق، ص 97.
- 19 رانية أحمد إبراهيم، شعر الحرب والفتن في الأندلس، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2007، ص 110.
- 20 ابن مسايب، "الديوان"، ص 109.
- 21 المصدر نفسه، ص 180.
- 22 المصدر نفسه، ص 109.

المصادر والمراجع

1. ابن مسايب، الديوان، جمع وتحقيق محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، دار ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، ب.ط، 2001.
2. أنستانس ماري الكرمل، أديان العرب وخرافاتهم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005.
3. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لبنان، ط2، 1993، ج 11.
4. خالد حسين جبر، جينالوجيا الأنساق الثقافية في الشعر الجاهلي، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، العراق، 2015.
5. رانية أحمد إبراهيم، شعر الحرب والفتن في الأندلس، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2007.
6. صالح آدم، من قضايا الأدب الإسلامي، دار المنارة، جدة، ط1، 1985.
7. عبد الرحمن الحربي، النزعة الدينية في شعر محمد العيد الخطراوي - رسالة الماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 2010.
8. فوزي سعد الله، صفحات مجهولة من تاريخ الغناء الأندلسي، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2001.
9. كمال طاهير، الخطاب المعرفي للشعر العربي قبل الإسلام - أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، كلية الآداب واللغات، 2013.

نسقية خطاب المناجاة في الشعر الشعبي الجزائري - ابن مسايب نموذجًا / أ.د عبد الرحمن بغداد

10. محمود البستاني، البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، مؤسسة الطبع والنشر في الأستانة، ط1، 1414هـ.
11. ناظر كاظم، تمثيلات الآخر- صورة الآخر السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004.